doi.org/10.52866/esj.2021.01.17.09

صورة البطل في اختيارات عماد الدين الأصبهاني في كتابه خريدة القصر وجريدة العصر (الأيوبيون والفاطميون نماذج)

أ. م. د. محمود شلال حسين
الجامعة العراقية / كلية الآداب - قسم اللغة العربية

المستخلص :

يسعى هذا البحث الى دراسة سمات البطل عند شعراء مصر والشام في مدائحهم لملوك الايوبيون وخلفاء الفاطميين كما وردت في كتاب(خريدة القصر وجريدة العصر) لعماد الدين الاصفهاني. تنطلق فكرة البحث من مبدأ نقدي يرى لأية بيئة تأثيرها في سلوك الأفراد ومعتقداتهم وهو جزء مما يعرف في النقد الادبي بـ (ما حول النص) .

The Image of "Hero" in the Selections of Imad Al-Din Al-Isbahani of His Khareidat Al-Qasr and Jareidat Al-Asr (the Ayyubids and the Fatimids) as Models

By
Assist. Prof. Mahmood Shallal Hussein AL-Qaisi, PhD

Abstract :

This paper tries to study the characteristics of "hero" among the poets of Egypt and the Levant, in their praise of Ayyubid kings and the Fatimids Caliphates, as mentioned in the book (Khareidat Al-Qasr and Jareidat Al-Asr) by Imad Al-Din Al-Isbahani. The idea of this paper commence from a critical point of view, which considers the environmental context and its influence on behaviors and beliefs of individuals, which is known in literary criticism as (what is behind the text).

المقدمة

اكتسبت مختارات الأصبهاني في كتابه (خريدة القصر وجريدة العصر) أهمية كبيرة، لأسباب عدة، منها ما يتعلق بالمؤلف، ومنها ما يتعلق بالموضوع الذي سعى المؤلف للقول فيه، والنصوص الشعرية التي أوردها .

فأما ما يتعلق بالمؤلف فهو الجهد الكبير الذي بذله في جمع مادة الكتاب الهائلة، التي كانت نتاج شعراء العالم الإسلامي لقرنين من الزمان ؛ هذا الجهد الذي قدمه، بعد أن أعمل فيه ذوقه الناقد فاحصاً ومدققاً، كانت اختياراته شهادات تفوق، تشهد لإصحابها بالإبداع والإصالة، فصار الأصبهاني بعمله هذا صورةٌ لأبي تمام في حماسته .

وأما الموضوع فإن عدداً غير قليل من الشعراء الذين ذكرهم المؤلف لم يسبق لأي مصدر أدبي آخر ذكرهم أو ذكر أشعارهم، وهذا يعزز مكانة الكتاب بين كتب التأريخ الأدبي .

وأما النصوص الأدبية فقد امتازت بالجودة والرصانة، بعد أن حكّم فيها الأصبهاني ذوقه، واختار منها ما يراه أهلاً لتقديمه للقارئ .

قدّم الأصبهاني مادته مقسّماً إياها على أساس البيئات الجغرافية، مثل بيئة العراق، وبيئة فارس، وبيئة مصر، وبيئة الشام وهكذا .

ومن هنا انطلقت فكرة البحث، تعززها فكرة أخرى، لها بالبيئة صلةٌ، وهي دراسة سمات البطل في بيئتين من هذه البيئات دراسة موازنة، تهدف إلى بيان مدى الالتزام بالسمات التي أرستها الذائقة العربية للبطل، التي هي : العدل والعقل والشجاعة والعفة، فضلاً عن بيان تأثيرات كل بيئةٍ من هاتين البيئتين في أساليب الشعراء ونتاجهم، تأكيداً للحقيقة الراسخة التي تذهب إلى حتمية وجود هذه التأثيرات بصورٍ شتى .

اختار الباحث غرض المديح، بوصفه المجال الأرحب بعرض سمات الممدوح التي يمكن القول إنها في شكلها الأكثر سطوعاً هي سمات البطل ؛ واضعاً في حسبانه أن غرض الرثاء مجال آخر لبيان هذه السمات، وإن كان أضيق نطاقاً . واتجه صوب بيئتين مصر والشام قاصداً أنموذجين للممدوحين، هم ملوك الأمويين وملوك الفاطميين، ساعياً إلى التماس تأثيرات للبيئتين وفروقٍ بين طرائق التعبير فيها وهذا ما سيكشف عنه البحث في مساره .

اقتضت طبيعة البحث ومنهجيته أن يكون بعد هذه المقدمة على تمهيدٍ ومبحثين وخاتمة وقائمة بالمصادر .

التمهيد

البيئات الشعرية في الخريدة

كتاب (خريدة القصر وجريدة العصر) موسوعة أدبية كبيرة، تقع في (21) مجلداً، ترجم فيها المؤلف لعدد كبير من شعراء القرنيين الخامس والسادس الهجريين، وذكر بعض قصائدهم.

وهذا الكتاب من خيرة كتب المؤلف، أنفق في جمع مادته مدة طويلة من حياته الحافلة بالدرس والتحصيل. وليست قيمة الكتاب فيما استغرقه من مدة فسيحة من الزمان فحسب، وإنما تنبع قيمته كذلك من تلك الرقعة الواسعة في المكان، إذ لا يقصر اهتمامه على قطر واحد من أقطار دولة الاسلام، ولا على شعراء دولة من الدول، وإنما شمل اهتمامه شعراء العالم الإسلامي كلّهم، فالبيئات الشعرية ظاهرة جليّة في الكتاب.

وسنختار من تلك البيئات بيئتي مصر والشام، واضعين في حسابتنا أننا قد نجد ملامح، تميّز بيئةٍ من أخرى، وطرائق تعبير، قد تتفرد بها إحدى

البيئات، بتأثير تقاليد أهلها ومعتقداتهم وأسلوب حياتهم .

القيمة الأدبية للاختيارات:

- إنّ لاختيارات العماد الأصبهاني قيمةٌ أدبية مميزةٌ تتمثل في تّفرده بذكرها، إذ إنّ غالبها لم يذكر إلا في كتابه (الخريدة)، كما أنه انفرد بذكر عدد غير قليل من الممدوحين والشعراء ولا تتوافر عن هؤلاء معلومات إلا ما ذكره هو .
- جاءت الاختيارات بعد جهد مضنٍ، بذله المؤلف في فحصها ودراستها .
- تمثل الاختيارات ذائقة شاعر مجيد، ونتاجاً لنظرته النقدية، إذ اختار ما كان يراه النتاج الأفضل للذين اختارهم من الشعراء .

سمات البطل :

رسم الشاعر العربي في قصائد المديح والرثاء صورة البطل كما كان يراها؛ وزاد عليها من خياله أوصافاً، وضحت جمالها وملامحها، حتى غدت مثلما أراد لها أن تكون، صورة الانسان المثالي اخلاقاً وتقاليد وسلوكاً، النبيل في كل حالاته[1].

كانت صورة البطل ماثلة في أذهان شعراء عصر (الخريدة) واضحة المعالم، راسخة الجذور، إذ تتالت في خواطر أبناء الأمة جيلاً بعد جيل، فالبطل حلم من أحلام أية أمة، يعيش في وجدانها، وهو (المثال الذي تتوسم فيه كل فضائل الجماعة التي ينتمي إليها ؛ لأنه - في تصورها - الانسان المؤهل لتحقيق رغبتها والانسان الذي يرى فيه الآخرون ما يبحثون عنه، وما يريدون الوصول إليه، وما يجهدون أنفسهم من أجل التمثل به.)[2].

هذا الانسان الراقي ليس منعزلاً عن واقعه الاجتماعي، إنما هو انعكاس له[3] ، فظهور بطل في مجتمع معين لا يعني حاجته إلى منقذ فحسب، إنما يعني وصوله إلى حالة أصبح فيها قادراً على خلق مثل هذا الانسان المتميز.

يمكن في الغالب استخلاص ملامح البطل من خلال قصائد المديح ؛ فضلاً عن قصائد الرثاء، إلا إن المديح هو الغرض الأكثر اتساعاً لاستيعاب هذه الصورة ؛ لأن أجواء الحزن الغالبة على قصائد الرثاء تقيّد المبدع، وتحول دون الافاضة في رسم ملامح الصورة .

لقد حددت الذائقة العربية فضائل أربعاً، يتصف بها البطل (الممدوح)، وهي: العقل والعفة والعدل والشجاعة[4]، وقد استنبط ابن رشيق القيرواني من هذه الفضائل الرئيسة فضائل أخرى فرعيةً.

فمن العقل فرَع المعرفة والحياء والبيان والسياسة والصدع بالحجة والعلم والحلم عن سفاهة الجهلة، ومن العفة فرَع القناية وقلة الشره وطهارة الإزار، ومن الشجاعة فرّع الحماية والدفاع والأخذ بالثأر والنكاية في العدو والمهابة وقتل الأقران والسير في المهامة الموحشة والقفار؛ ومن العدل فرَع السماحة والتبرع بالنائل وإجابة السائل وقرى الأضياف،

(1) ينظر: شعر الحرب، د. علي الجندي: 1/ 78، (القاهرة 1958) (د.م) . ينظر: مع المتنبي في شعره الحربي، د. هادي نهر: 121، ط1، بغداد، 1979م.

(2) البطل في التراث العربي، د. نوري حمودي القيسي: 16، بغداد، 1402هـ/ 1982م. ينظر: أشكال التعبير في الادب الشعبي، د. نبيلة ابراهيم : 57 ، ط2 ، مصر، 1974م.

(3) ينظر: البطل المعاصر في الرواية المصرية، احمد ابراهيم الهواري: 7، بغداد، 1976م.

(4) ينظر: نقد الشعر، قدامه بن جعفر: 71 ، مطبعة الجوائب، قسطنطينية، 1306 هـ .

فكانت هذه الفضائل هي التفاصيل التي تشكل مجتمعة صورة البطل[1] .

المبحث الأول

بيئة مصر

مدائح الشُعراء للأيوبيين

نشأت الدولة الأيوبية في مصر، وامتدت لتشمل الشام والحجاز واليمن وبلاد النوبة وعدداً من أجزاء المغرب العربي؛ واستمرت من عام 584هـ- 648 .

استهل عماد الدين الأصبهاني مدائح بيئة مصر للأيوبيين بعدد من قصائده في أكثر الأيوبيين شهرةً وأثراً في التاريخ الإسلامي؛ وهو الناصر صلاح الدين الأيوبي. يقول: (ومما نظمته في طريق مصر قصيدة، ذكرت فيها المنازل على ترتيبها، والشوق إلى دمشق وطيبها، ووصلتها بمدح الملك الناصر)[2]. ومنها :

ومَنْ فارقَ الأحبابَ مُستبدلاً بِهِمْ
سواهُمْ فقد باعَ المرابحَ بالخُسْرِ
فَقلتُ ملاذي الناصرُ الملكُ الذي
حَصَلتُ بجدواهُ على المُلْكِ والنَّصرِ
فقالتْ أقِمْ لا تَعْدم الخير عندنا
فقلتُ وهل تُغْني السَّواقي عن البحرِ

تبدو ذائقة الشاعر الفنيةُ الراقيةُ جليةً في اختياره هذه القصيدة لتكون استهلالاً لما بعدها من قصائد؛ اذ جاءت نصاً شعرياً، اختزن قدراً كبيراً من الفن والاحاسيس الجياشة والعاطفة الوقادة؛ وهذه كلها تباشير بالإبداع الفني .

وصف الشاعر البطل الأيوبي في اثناء موجةٍ من العاطفة الملتاعة، نتجت عن فراق الأحبة، وأذكاها حوارٌ جارٍ معهم، يشي بشوقهم إليه، فكان لزاماً أن يأتي وصف البطل حاملاً غير قليلٍ من العاطفة، لنكتشف من خلاله أنَّ البطل يمثل للشاعر (ملاذاً)، ومصدراً للخير والعز (حصلت بجدواه على الملك والنصر)، وإنه (بحرٌ) ؛ بكل ما تحمله هذه اللفظة من دلالة على الخير والعطاء الوفيرين.

تمثل هذه الصفاتُ فروعاً لواحدة من الصفات الرئيسة الأربع للممدوح (البطل)، وهي العدل .

ويعود الأصبهاني إلى تعداد صفاتٍ أخرى لهذا البطل الذي اختزنت ذاكرة الجماعة صفاته؛ بوصفه ممثلاً لآمالها، فيختار من ذلك الخزين صفات أخرى فرعية، تعود إلى الأصل الذي عادت إليه سابقاتها؛ وهو العدل، وكأنه ينساق بشكل لا إرادي إلى القول المأثور (العدل أساس الملك)، فيقول:

فقالت صلاحُ الدين؟ قلتُ هو الذي
به صار فضلي عالي الحظِ والقَدْر
ثقي برجوعٍ يَضمنُ اللهُ نُجْحهُ
ولا تقنطي أنْ نُبدل العسرَ باليسرِ[3]
وانَ صلاحَ الدين إنْ راحَ مُعدمٌ
إليه غدا منْ فيضِ نائلهِ مُثري[4]

---

(1) ينظر : العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، أبو الحسن بن رشيق القيرواني : 21 ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط5 ، دار الجيل ، بيروت ، 1400هـ/ 1981م .

(2) خريدة القصر وجريدة العصر، أبو عبدالله عماد الدين الأصبهاني : 1/ 9 (قسم شعراء مصر) تحقيق أحمد أمين، د . شوقي ضيف، د. إحسان عباس، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، 1426هـ/ 2005م.

(3) الصواب أن يقول : أن نبدل اليسر بالعسر؛ لأن غير المرغوب فيه أو المتخيّ هو الذي يقترن بالباء، وقد قالت العرب: أبدله بخوفه أمنا . ينظر: أساس البلاغة، الزمخشري : مادة (بدل)، دار صادر، بيروت، 1399هـ/ 1979م .

(4) الخريدة : مصر 1/ 9 . الصواب أن يقول (مثريا) وليس (مثري) وقد اضطرته الضرورة إلى هذا .

إن صفات البطل الثانوية، أو الفرعية هذه تعود هي الأخرى إلى الصفة الرئيسة السابقة (العدل)، التي كانت سائدة في هذه القصيدة، وليس غريباً أن تسود في شعر، يتوجّه به الشعراء صوب الملوك والحكام وولاة الأمر؛ لأنَ العدلَ هو الركيزة الأساس لأيَ مُلكٍ، وفي كل العصور والحضارات .

ويعرض الشاعر سمة أخرى من سمات البطل في مديحه صلاح الدين الأيوبي، هي العقل، فيقول:

وإنّه في السَّماحِ حاتِمُها
وإنّهُ في الوقارِ أَحْنَفُها[1]

ثم يقول في مقطع آخر من القصيدة :

ذو شرفٌ مكرماتُهُ سَرَفُ
ويستحقُّ الثّناء مُسرِفُها[2]

وليست هذه المعاني شيئاً فريداً، أو غريباً عن غرض المديح أو وصف البطولة، وهي مما يتعاطاه الشعراء جميعاً في مدائحهم، وهم يذكرون سمة العقل .

ويشير الأصبهاني إلى السمة الرئيسة الثالثة التي وضعتها الذائقة العربية للبطل، وهي **الشجاعة** التي كانت أبرز سجايا البطل صلاح الدين الأيوبي، فيقول عند تصدي صلاح الدين للأفرنج في دمياط:

كم جحفلٍ بالعراءِ ذي لجبٍ
بالصّفِّ منه يضيفُ صَفْصَفُها
كالبحرِ طامي العُبابِ لاعبةٌ
بموجهِ للرِّياحِ أَعْصَفُها
كتيبةٌ منتضىً مُهنّدُها
إلى الرَّدَى مُشْرَعٌ مُثقّفُها[3]

وحاول الشاعر الالمام بوصف المعركة، ولكن جاء وصفه خارجياً، لم يتجاوز وصف النتائج، فلم يصف حركة الجحافل وصفحات القتال فيقول :

غادَرْتَها للنسورِ مأكَلَةً
حيثُ بأَشلائها تَضيّفُها
منتصفاً من رؤوسِ طاعنةٍ
بباتراتِ الظُّبى تُنَصّفُها
وحُطتَ دمياطَ إذْ أَحاطَ بها
مَنْ برجومِ البلاءِ يَقْذِفُها
لاقتْ غواةُ الفرنج خيبتَها
فزادَ من حسرةٍ تأسُّفُها[4]

وعلى الرغم من كثرة ما قال الأصبهاني من شعر في مدح البطل صلاح الدين فإننا نجد ضآلةً في النصوص التي تشير إلى الخصلة الرئيسة الرابعة من خصال البطل، وهي **العفة**، وهذه الظاهرة تضعنا أمام افتراض أن التغني بالعفة وتمجيدها يصلح لخطاب الملوك وذوي الشأن الخطير. يقول الاصفهاني مشيراً الى عفة البطل صلاح الدين:

صلاح دين الهدى لقد سَعِدتْ
مملكةٌ بالصَّلاحِ تُتْحِفُها
عندي بشكرِ النُّعمى ثمارُ يد
زاكيةِ الغرسِ أنتَ تَقْطُفُها
فاقَبَلْ نقوداً من الفضائل لا
يُصَابُ إلا لديك مَصْرفُها
أصدافُ دُرّيّ إليك أحملُها
وعنْ جميعِ الملوكِ أصْدِفُها[5]

وحين قسَّمنا ميدان البحث على وفق البيئات وضعنا في حسباننا الوقوف على فروق بين ملامح الصورة؛ أو أسلوب عرضها في هذه البيئات، منطلقين من كون المكان (يحدد هويته الشخصيات،

(1) الخريدة: 1/ 11 .
(2) المصدر نفسه .
(3) المصدر نفسه .
(4) الخريدة : 1/ 11.
(5) المصدر نفسه : 1/ 13 .

ويبرز الحقائق الاجتماعية، ويستفز الذاكرة، ويفجر المشاعر، وفيه تنمو أحداث لا يمكن أن تنمو في غيره، وتسكنه شخصيات لا يمكن أن تسكن غيره)[1]. ومن افتراض أن للبيئةِ أثراً في طرائق تعبير شعبها، وهذا ما وجدناه واضحاً، إذ صار اسم سيدنا نبي الله يوسف (عليه السلام) وتفاعلات قصته ملمحاً من ملامح أرض مصر؛ ورمزاً يشير إلى عصر من عصورها إشاراتٍ خاصةً وعامة . يقول الأصبهاني:

كأن قلبي وحبَّ مالِكِه
مصرٌ وفيها المليكُ يُوسُفُها
هذا يسلبِ الفؤادِ يَظْلِمني
وهو بقتل الأعداءِ يُنْصفها[2]

استثمر الشاعر الاسم الصريح للبطل صلاح الدين الأيوبي[3] لخلق نوع من التناص اللفظي ما أتاح له توظيف شيء من الاشارات الذاتية الخاصة المرتبطة بقصة النبي يوسف عليه السلام، فانطلق من أكثر مفاصل قصته اثارة، وهو الجانب العاطفي المحتدم الذي أذكى الاثارة الوجدانية في أجواء القصة، فبدأ بالحديث عن (الحب) و(القلب)، ثم وقف عند الاشارة العامة، وهي تسنم سيدنا يوسف مقاليد السلطة الإدارية في مصر، لينطلق من خلال آلية التناص الى مصير صلاح الدين، وسلطته فيها وقوته في الدفاع عن أرضها ونجاحه في الفتك بأعدائها.

ويعود الاصبهاني إلى الاشارات العامة في قصة سيدنا يوسف (عليه السلام)، مستثمراً تناصاً لفظياً، استقاه من القرآن الكريم، ليجعل انجاز نبي الله يوسف وحسن إدارته شؤون مصر قناعاً، تتوارى خلفه مأثرة البطل صلاح الدين الأيوبي، فيقول :

يوسفُ مصرَ التي ملاحمُها
جاءتْ بأوصافِهِ تعرفُها
كتبُ التواريخِ لا يُزينها
إلا بأوصافه مُصنفُها
ومن يُمير العفاة في سنةٍ
أسمنُها للجدوب أعجفها
آياتُ دينِ الالهِ ظاهرةٌ
فيكَ ويُثني عليك مصحفها[4]

ولا يخفى صلة اللفظين (يمير) و(أعجفها) في النص الشعري ذوي صلة بالنص القرآني الكريم، في قوله تعالى: ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾[5] ، وقوله: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾[6] .

مدائح شعراء مصر للفاطميين

حكم الفاطميون مصر مدة تزيد على مائتي سنة من (297هـ- 567هـ)، وانتهت دولتهم على يد الناصر صلاح الدين الأيوبي .

تلفت النظر في مدائح الشعراء للفاطميين ظاهرتان مميزتان، الأولى: تجاوز الشعراء للسمات المعهودة للممدوح أو البطل، والنأي عنها والتماس سمات جديدة؛ اختطت مساراً، اتّسم بالمبالغة والمغالاة .

(1) حركة المجتمع وتحولات النص، خالد المصري، ط1، دار الهدى، دمشق، 1997: 158.
(2) الخريدة:1/ 10، وينظر: 1/ 17 فيها إشارة مماثلة.
(3) هو يوسف بن أيوب بن شادي أبو المظفر صلاح الدين الأيوبي. (589هـ). ينظر: الكامل في التأريخ، لابن الاثير : 1/ 18، تحقيق عمر عبد السلام، دار الكتاب العربي، بيروت 1417ه/ 1997م.
(4) الخريدة : 1/ 11.
(5) سورة يوسف: الآية 65.
(6) سورة يوسف: الآية 43.

والظاهرة الأخرى: اجتهاد الشعراء في الإتيان بصور شعرية جديدة، فيها من الطرافة وإلف الخيال، أو الغرابة ما يفوق المعهود في التراث العربي، ولعل في هذا سداً للثغرات التي احدثها النأي عن سمات الممدوح المتداولة في عالم الشعر. يقول الأخفش المغربي[1] في مدح الآمر بأحكام الله[2] .

وهجَّرتِ الرمضاءُ والآلُ مائحٌ
كأَنَّ على أَمْواجها العيسَ مَرْكَبُ
وقد زَجَلَّتْ جنُّ الفلاة بمهمه
إذا جئتَ منها سبسباً عَنَّ سَبْسَبُ
إلى ذروةِ النورِ العَلائِيِّ إِنَّهُ
إلى ذروة النُّورِ الإلهِيِّ يُنْسَبُ[3]

يقول الشاعر إنه هجر الحرّ والعطش، والتجأ إلى الآل أي : السراب، والمائح أي : الساقي كأنها مراكب العيس وهي الإبل البيض، وقد تغنّت الجن في الفلاة حين قطع سبسباً بعد سبسبٍ أي مفازة بعد مفازة، حتى وصل إلى الممدوح الذي وصفه بانه نور علائي، وأنه إلى نور الله ينتسب، والبيت الأخير شاهد للدلالة على المبالغة والمغالاة .

وأنموذج للمقولات المذهبية التأويلية التي عُرف بها الفاطميون، الذين كان (دعاتهم ينشطون في كل البلاد وفي كل المجتمعات، ويطالبون أصحاب المذاهب الأخرى، ويعقدون مجالس الحكمة التأويلية، ويأخذون العهد على كل مستجيب. واتخذوا للدعوة لمذهبهم وسائل وتدابير مختلفة، فاستجاب كثير من المصريين إلى دعوتهم وعقيدتهم)[4] .

وللشاعر نفسه قصيدة في مدح حاكم فاطمي آخر، هو الحافظ لدين الله الفاطمي[5] ويسرف فيها المديح إسرافاً . ومن ذلك قوله :

صرف جريال يرى تحريمها
مَن يرى الحافظ فردًا صمدَا
بشر في العين إلا أنه
من طريق العقل نور وهدَى
جَلَّ أن تدركه أعيننا
وتعالى أن تراه جسدَا
فهو في التسبيح زلفى راكعٍ
سَمِعَ الله به مَن حمدَا
تدرك الأفكارِ فيه نبأ
كاد من إجلاله أن يُعبَدَا[6]

والذي لا يمكن تأويله أو تسويقه بأي اجتهاد مذهبي، ولا نملك أمام تواتره واضطراره في بيئة

(1) وهو الشريف أبو الحسن علي بن محمد الأخفش المغربي الشاعر. ذكره عماد الدين الأصفهاني، وروي شيئا من شعره. ينظر: خريدة القصر: 1/ 238.

(2) وهو منصور بن أحمد بن معد، أبو علي الآمر بأحكام الله العبيدي الفاطمي، سابع خلفاء الدولة الفاطمية بمصر. بويع له بعد وفاته أبيه سنة (495هـ) وعمره خمس سنين، استمر في الخلافة تسعاً وعشرين سنة، مات قتيلاً سنة 524هـ . وفيات الاعيان5/ 299. ترجمته: ينظر: سير أعلام النبلاء للذهبي: 15/ 297 ، تحقيق مجموعة من المحققين بإشراف شعيب أرناؤوط، ط3، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1405هـ/ 1985م. وينظر: وفيات الاعيان وأنباء أبناء الزمان، لابن خلكان: 5/ 499 ، تحقيق د. إحسان عباس، دار صار، بيروت، 1994م .

(3) الخريدة : 1/ 239 .

(4) دراسات في الأدب واللغة، د. محمد كامل حسين: 76-77، ط1، منشورات البندقية، القاهرة، 2016م.

(5) هو عبد المجيد بن المستنصر بالله العبيدي، الملقب بالحافظ لدين الله ، ثامن خلفاء الدولة الفاطمية بمصر. ولد في عسقلان سنة (467هـ) وتملك الديار المصرية سنة (524هـ). كان كثير الفتك بوزرائه وخاصته. توفي سنة (544هـ). ينظر: كنز الدرر وجامع الغرر، للدواداري مطبعة عيسى البابي الحلبي، 1415هـ / 1994م، : 6/ 506

(6) الخريدة: 1/ 241.

معينة إلا وصفه بأنه سمة من سمات البطل -الدخيلة- المتفق عليها ؛ و(من الضروري أن يلتفت الناقد الى المؤثرات التي تسربت من البيئة إلى نفس الشاعر، أكانت جلية كثيرة الوضوح، كما بدت في مواضيع الشعر الجاهلي، أو قاتمة غامضة)[1] .

وإلى جوار هذه المغالاة، نجد المبالغة أخف وطأة على الذوق، في نظر الذوق المعتدل الرصين في شعر أسعد بن علي[2] في مديح الصالح بن رزيك[3] في قصيدة قال فيها :

لئن كنتَ قد نَحَّبْت عباسَ من ظُبَا
فَرَنْجَةَ لما لم يجدْ عنك مُسْتَعْفَى
وأنقذْتَهُ من أَسره وهو ذاهلٌ
يَرُدُّ عن الأهوال في المأزق الطَّرْفَا
فَقَدْ سُقْتَهُ إذْ فَرّ مِنْكَ إلَى مَدَىً
تمد مُداهُ نحو مُقْلَتِهِ الحَتْفَا
وما فَرّ من وَقْعِ الأسنّةِ صاغراً
وجدّكَ إلا حين لم يَرَ مُستَخْفَى
وملّ الطعانَ المرَّ للمَلِكِ الذي
يراه حَييّاً عندما يَهَبُ الإلْفا[4]

يمدح الشاعر الممدوح بأنه أجبر عبّاساً[5] على الفرار منه، حتى صار صيداً للفرنجة، نالته ظباهم، أي : ضبة سيوفهم، وأنه أنقذه من أسره وذهوله، إذ أضطره إلى ملاقاة حتفه، وأنه لم يفر خوفاً من الرماح، ولكنه لم يجد موضعاً يختفي فيه من الممدوح، وملّ الطعام الشديد للممدوح، الذي يراه خجولاً حين الألفة .

وله قصيدة أخرى في مدحه التي تشير إلى خصلة من خصال البطولة، وهي العدل قال فيها:

صَاحِ إنْ أَهْجُرْ سُلَيْمَىَ وَالرَّبَابْ
فلقد بُدّلْتُ من غي صوابا
ولقد واصلتُ منْ بعدهما
مدحَ من أَغْرى بجَدْواهُ انتسابا
إنَّ في كفّ ابن رزّيكٍ لمنْ
يبتغي الرفدَ لآمالاً خِصَابا[6]

ينادي صاحبه أنه يترك التغزل بسليمى ورباب، وأنه بيترك التغزل قد صار إلى الصواب، وأنه صار يمدح من إن انتسب إليه انتفع به، ففي كف الممدوح بغية لمن يرجو المال، ثم قال :

ويمنى فارسِ الإسلام قد
أُجْرِيَ البحرُ الذي عَبَّ عُبابا
كم له في الشام من معجزةٍ
ومقامٍ لم يكن إلا احتسابا
جرَّبَ الإفرنج من أفعاله
في صناديدهمُ أمراً عُجابا[7]

(1) في النقد والأدب، إيليا الحاوي، ط4، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1979م: 1/ 78.
(2) هو الشريف القاضي أسعد بن علي سناء الملك. موصلي الأصل هاجر الى مصر، حدّث بمصر عن أبي القاسم بن القطاع. ينظر : بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، للسيوطي : 1/ 441. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، لبنان، 1964م .
(3) هو طلائع بن رزيك الملقب بالملك الصالح، قَدِمَ مصر من العراق فقيراً، وتوفي في خدمة الملوك حتى ولي وزارة الخليفة الفائز الفاطمي، واشتغل بأمور الدولة. ومات الفائز، فتزوج بنت طلائع، واستمر هذا في الوزارة. كان شجاعا كثيراً الغزو للأفرنج في البر والبحر، قتل غدراً سنة 556هـ . ينظر: الكامل في التاريخ، لابن الأثير: 1/ 213. تحقيق عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، 1417هـ/ 1997م .
(4) الخريدة : 1/ 119 - 120 .
(5) هو عباس بن يحيي بن تميم بن المعز بن باديس، كان وزيراً للظافر الفاطمي، ودبر له مؤامرة فقتله، فأستغاث أهله بطلائع بن رزيك الذي جاء من الصعيد، ففر عباس إلى الشام، وقتله الفرنجة في الطريق. ينظر : نهاية الأرب في فنون الأدب : 28 / 311 .
(6) الخريدة : 1/ 120 .
(7) المصدر نفسه .

ويكرر الشاعر مدح كرم الممدوح، وأن في يمينه قد أجرى البحر المتلاطم، ويشير إلى خصلة أخرى من خصال البطولة وهي **الشجاعة**، وأن له في الشام مآثر كثيرة، ما فعله إلا احتساباً لله، وأن الفرنجة جربوا من قتاله لهم أموراً عجيبة، إذ انزل القتل في فرسانهم .

أما الظاهرة الأخرى في مدائح شعراء الفاطميين فهي اجتهادهم في الاتيان بصورة فنية جديدة ؛ رغبة في اضفاء لمسات جمالية، تغطي المساحات التي خلّفها إعراضهم عن الصيغ المعهودة في المديح .

ويبدو أنّ عدداً من الشعراء راحوا يجهدون الخيال، لابتكار صور ومعانٍ جديدةٍ، تطغى طرافتها وجدّتها على ما يمكن أنْ يستنكره الذوق الواعي الرصين ؛ وهو يصغي إلى ما يقال من مدائح .

وللخيال دوره الكبير في خلق الصورة الفنية؛ فهو أساس لها، وهو الملكة التي يستطيع بها الادباء أنْ يؤلفوا صورهم من إحساسات سابقة ؛ تختزنها عقولهم وتظل كامنة في مخيلتهم[1]. ولا يعني قولنا لهذا نبذ الشعراء بسمات البطل المعهودة، بل اعمال الخيال لأبداع صور، إنْ لم تكنْ بديلاً عنها، فإنها في الأقل ستكون سبلًا موصلة إليها .

ويصف الشاعر القاضي الجليس[2] خيول جيش صالح بن رزيك قائلاً:

وقُدْتَ له الجُرْدَ الخِفَافَ كأنما
قوائمُها عند الطِّرَادِ قَوادِمُ
وتنصُلُ منها والعَجاجُ خضابُها
هوادٍ لأركان البلادِ هَوادِمُ

تجافتْ عن الماء القَرَاحِ فريُّها
دماءُ العِدَا فهي الصواديْ الصوادمُ[3]

ابتداءً نشير إلى ان مضامين الأبيات الثلاثة سماتُ فرعية ؛ تؤكد سمةً رئيسة من سمات البطولة المتعارف عليها، وهي الشجاعة، غير أنّ فيها اعمالاً ونشاطاً للخيال، نتجت عنها صورٌ فنية وعلاقات جديدة، تعد نجاحاً وابداعاً فنياً للشاعر.

في الشطر الثاني من البيت الاول لمحة من صورة الخيل تفصح عن السرعة والخفة، إذ تكاد تكون طيوراً (قوائمها عند الطراد قوادم)، وتأتي موسيقى الجناس الناقص في (قوائم) و(قوادم) لتضمن الدلالة في وجدان المتلقي مكاناً رحباً. أما في البيت الثاني فان بؤرة النص تكمن في الجملة الحالية (والعَجاجُ خضابُها) التي تصاحبها موسيقى هادئة ؛ مصدرها الجناس الناقص المتمثل في (هوادٍ) و (هوادم) .

اعتاد الشعراء عند وصف الخيل في المعركة أن يجعلوا دماء القتلى خضاباً لسيقان الجياد؛ وربما ربطوا (الدماء) و(الخضاب) ربطاً آخر، وليست بعيدةً عنا الصورة التي أبدعها خيال امرئ القيس جاعلاً فيها دماء الطرائد خضاباً، يلوّن صدر فرسه، لكن الشاعر الفاطمي آثر استبدال عجاج المعركة بالدماء، مدّخراً إياها – الدماء- ، ليوظفها في البيت الثالث، في معنى مبتكرٍ، حين جعلها ريّاً للجياد.

إن من نافلة القول الاشارة إلى أنّ وراء الأبيات المذكورة ابياتاً أخرى، تشكل بمجموعها فضاءً شعرياً، يشبه ذلك الفضاء الذي صاحب رائعة المتنبي الخالدة، في وصف المعركة التي قادها سيف الدولة الحمداني ضد الروم، التي جرت عند قلعة

(1) ينظر: في النقد الادبي، د. شوقي ضيف: 167. ط9، دار المعارف، القاهرة 0د.ت).

(2) هو عبد العزيز بن الحسين بن الحباب الأغلبي، المعروف بالقاضي الجليس. شاعر وأديب من أهل مصر ولد سنة 490هـ . ينظر : خريدة القصر: 1/ 189.

(3) الخريدة : 1/ 190 .

(الحـدث)، ومطلعهـا:

عـلى قدر أهـل العـزم تأتي العزائـمُ
وتأتـي على قـدْرِ الكرامِ المكـارمُ[1]

ومنها قوله:

هَلِ الحَدَثُ الحَمـراءُ تَعـرِفُ لَونَهـا
وَتَـعلَـمُ أَيُّ السـاقِيَينِ الغَمـائِـمُ
سَقَتهـا الغَمـامُ الغُـرُّ قَبـلَ نُزولِـهِ
فَلَمّا دَنا مِنهـا سَقَتهـا الجَماجِمُ[2]

ومـن الصـور اللافتـة التـي ابدعهـا خيـال هـذا الشـاعر قولـه:

فمـزّقْ جُـموعَ الـمـارقيـنَ فانّهـا
بقايـا زروعٍ آذنـتْ بـحـصـادِ[3]

وللشـاعر اسـعد بـن عـلي صـورة طريفـة، مـدح مـن خلالها الصالـح بـن رزيـك، اقـترن فيهـا الخيـال الخالـق بتناسـق الالفـاظ وموسـيقاها وبالحركـة الظاهـرة، اذ يقـول :

يـخطّطُ بالخطيّ فـي النقـعِ موطنـاً
يـحوزُ العلا والموتُ يلحظهُ شَـزْرا[4]

ولعـل الأخفـش المغـربي أنمـوذجٌ للشـاعر الـذي جعـل صـوره المبتكـرة واسرافـه في توظيـف صفـات القداسـة حجابـاً؛ يسـتر مواطـن الضعـف في سـيرة ممدوحـه، إذ قـرن صـورةً مبتكـرةً بصفـات قدسـية في مـدح الآمـر بأحـكام الله الفاطمـي . فقـال :

وهـجَّـرتِ الـرمضـاءُ والآلُ مـائـحٌ
كـأَنَّ علـى أَمْواجـهـا العيسَ مَرْكَـبُ
وقـد زَجَلَـتْ جـنُّ الفـلاة بمهمـهٍ
إذا جئتَ منها سبسباً عَنَّ سَبْسَبُ[5]

نهـج الشـاعر طريقـة الشـعراء القدامـى في وصـف رحلتـه إلى الممـدوح، وبـيّن شـدة العنـاء الـذي لقيـه في اثنـاء ذلـك(ويرتبـط بوصـف الرحلـة الحديـث عـن الحَـرّ اللافـح وسَـموم الهجـير الـذي يحيـل الصحـراء بمظاهرهـا جميعـاً عنـاصر ثابتـة، الريـاح تمـوتُ، والآرام تقيـلُ في كناسـها والحربـاء لا يريـم، وليـس هنـاك مـا يـدل عـلى الحيـاة إلا خفـق الآل عـلى رؤوس الآكام)[6] .

أشـار الاخفـش المغـربي الى اتقـاد رمـال الصحـراء بقولـه (وهجَّـرتِ الرمضـاءُ)، ثـم شرع في رسـم صورتـه، فانطلـق مـن محـور فكـرة الصـورة، وهـو إن المرئيـات تبـدو قلقـة، غـير مسـتقرة، حـين تتخلـل الـسراب، فتأخـذ في الارتفـاع والانخفـاض، وهـذا مـا أجمـع عليـه الشـعراء السـابقون، مصوريـن إيـاه في صـور، قد يتشـابه كثـيرٌ منهـا، ولاسـيما سـاكني البلـد الواحـد أو البلـدان المتجـاورة[7]، وقـد يختلـف عـدد منهـا عـن الشـائع لأسـباب قـد يتجـاوز بعضهـا تأثـير البيئـة، مثـل سـمة خيـال الشـاعر ورصيـده الفنـي .

وبعـد انطـلاق الشـاعر مـن محـور الفكـرة، سـتتجلى قدرتـه الفنيـة في رسـم مشـهدين داخـل إطـار الصـورة، المشـهد الأول: هـو تشـبيه حركـة الـسراب بحركـة رجـل، يسـتقي مـن بئـر، فيـدلي دلـوه فيهـا، والمشـهد الآخـر: يصـير فيـه الـسراب بحـراً، والإبـلُ مراكـب فيـه، تمخـر عبابـه مستسـلمة لحركـة أمواجـه .

(1) ديـوان أبي الطيـب المتنبـي، بـشرح الواحـدي: 4/ 495. تحقيـق: ماجـد الجعافـرة، ط1، دار جليـس الزمـان للنـشر والتوزيـع، عـمان الاردن، 2013م .
(2) نفسه : 4/ 497
(3) الخريدة : 1/ 190.
(4) المصدر نفسه : 1/ 120 .
(5) المصدر نفسه : 1/ 239 .
(6) الابـل في الشـعر الجاهـلي (دراسـة في ضـوء علـم الميثولوجيا والنقـد الحديـث)، د. انـور عليـان أبـو سـويلم: 1/ 71، ط1، دار جريـر، عـمان، الاردن، 1436هـ / 2015م .
(7) تنبّـه الآمـدي عـلى أثـر البيئـة في تقـارب معـاني الشـعراء وتشـابه صورهـم، ولاسـيما أهـل البلـد الواحـد أو البلـدان المتجـاورة . ينظـر: الموازنـة بـين أبي تمـام والبحـتري للآمـدي (تحليـل ودراسـة) د. قاسـم مومنـي: 158(دار آفـاق عربيـة، بغـداد 1405هـ / 1985م .

وقد وقف الشاعر لبيد، منذ زمن طويل عند منظر السراب، وقد أحاط بركب محبوبته، فرسم هذه الصورة :

حُفِزَتْ وَزَايَلَهَا السَّرَابُ كأنها
أَجْزَاعُ بِيشةَ أَثْلُهَا وَرُضَامُهَا[1]

يصف الشطر الأول من البيت حركة الهوادج عند الرائي، حين يحيط بها السراب، فتبدو في ارتفاع ورسوبٍ تارةً، وتتفرق تارةً اخرى. أما الشطر الثاني فهو يشبّه الهوادج بأشجار الأثل أو الصخور المتراكمة .

ولم تكن محاولات هذا الشاعر في الابتكار كلها موفقة ؛ إذ لم يحالفه التوفيق في محاولة، أقل ما يقال فيها انها تجافي مفاهيم البطولة.

لقد أستعار الشاعر أجزاء صورته وتفاصيلها ومفردات بنائها اللغوي من عالم النساء والغواني والمعشوقات، اللائي كُنّ مَحطّ آمال عشاقهنّ، وبطلات أحلامهم، فقال :

رشأ لو لم تَكنْ ريقَتُهُ
قهوةً صافيةً مما عَرْبَدا
تحجب الكلَّةُ منه قمرا
ويحوزُ الدرعُ منه أَسَدا
قمرٌ إنْ هزَّ رمحاً في الوغى
هزَّ من عطفيه غصناً أَمْلدا[2]

يصفه بولد الظبية، وأن ريقه خمرةٌ صافية، وان الكلّة تحجبه وهو القمر، وان درعه تحوز منه الأسود، وهو قمرٌ انهز رمحه في المعارك، كان مثل الغصن الأملد، أي : الشاب الناعم .

إن نظرة فاحصة لألفاظ النص ودلالاتها تكشف أن القسم الأعظم منها مما يقال في وصف النساء، ولاسيما ألفاظ البيت الأول، فضلاً عن (الكِلّة) و(القمر) – وقد تكررت هذه اللفظة مرتين – و(هزّ من عطفيه) و(غصناً أمْلدا)، فصورة الممدوح هنا ليست صورة ملكٍ أو خليفة، بل صورة، تذكرنا بخمريات أبي نواس ومجالس لهوه وندمائه، وساقي الخمر أو ساقيته الغلامية وهما يملآن الكؤوس، فيبادر الشاعر الى التغني بالجمال الذي يقف بحضرته، قبل ان يتغنى بلون الخمر وطعمها، مثل قول أبي نواس:

باتَت بِطَرفٍ مُسَهَّد ... مَطمومَةٌ تَتَمَرَّد
فَكُلُّ حُسنٍ بَديعٍ ... مِن حُسنِها يَتَوَلَّد
في القَلبِ منّي عَلَيها ... حَرارَةٌ تَتَوَقَّد[3]

المبحث الثاني
بيئة الشام

أكتفى عماد الدين الأصبهاني عند حديثه عن مدائح شعراء الشام للأيوبيين بذكر شعره وشعر ابن الخياط. فقد ظلت سمات البطل المعهودة شاخصة في مدائح الاصبهاني لولاة الأمر الأيوبيين في الشام، ولا تكاد مدائحه فيها تختلف عن مثيلاتها التي قالها فيهم، وهو مستقر في مصر، الا في ذكر أسماء المدن والولايات، وفي تغيرات، ظهرت على ألفاظه، فبدا عليها شيء من الرقة الأنيسة. هذا في جانب البناء اللفظي للشعر، أما جانب المعاني، أو (الرؤية) فيمكن أن يُسجل له، ولمجموعة قليلة من الشعراء أنهم جعلوا الرثاءَ وعاءً لاحتواء سمات

(1) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات، لابي بكر محمد بن القاسم الانباري: 531 ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ط2، دار المعارف بمصر، (د.ت) .
(2) الخريدة : 1/ 241.
(3) ديوان أبي نواس، الحسن بن هانئ الحكمي: 4/ 45، تحقيق غر يغور شولر، دار النشر: فرانتز شتاينر– فيسباون1402هـ / 1982.

البطل، إذ يمكن أن نلاحظ بيسر أنّ المديح كان المجال الرحب لعرض هذه السمات، أما الرثاء فقلّ من الشعراء من مدّ اليه البصر، إلا نفراً قليلاً، كان للمرثي أثر عميق في نفوسهم، وقد لا يكون هذا الرأي قاعدةً عامة، يمكن الركون اليها، ولكنّ في مداها - بدون أدنى شك- طائفة من الشعراء ذوي النفوس السامية، البعيدين عن التكسب .

يقول الأصبهاني في رثاء الملك العادل[1] مشيراً إلى **سمة العقل لدى البطل** :

ومنذ ثوى نورُ دينِ الله

هـ لم يبقَ للشام والدين نور

وإني لأرجو من الله أنْ

يُقدَّر بعد الأمور الأمورُ[2]

ويشير إلى **شجاعته** ونصرته للدين:

غدوتَ للإسلام رُكناً وكمْ

رُكنِ ضلالٍ بكَ مهدود

وذُلَّ لواءُ بني الشرك في

لواءِ نصرٍ بكَ معقودِ[3]

أما التغيرات التي طرأت على ألفاظه، وهو في بلاد الشام، فكستها تلك الرقة الأنيسة، فمثال قوله في مديح البطل والثناء على **شجاعته**:

عَزَمتْه مشهورةٌ في الورى

وسَيفُهُ ليسَ بَمغْمود

وثَلْمُ ثَغْرِ الكُفرِ عاداتُه

لا ثَلْمُ ثَغْرِ الغادةِ الرُّود

تثني مثاني الذَّكرِ عِطْفهِ لا

لحنُ المثاني والاغاريدِ

وفي مطَا الجُرْدِ له راحةٌ

تُنسي وصَالَ الخُرَّدِ الغيدِ[4]

تستوقف المتلقي منذ اللحظات الأولى التي يلتقي فيها النص موجةٌ من موسيقى؛ خارجية وداخلية، تثير في النفس مشاعر بعيدة عن أجواء المعارك وصخبها، فهي اقربُ إلى الاحتفاء بشيء أنيسٍ.. احتفاء تتخلله أهازيج ناعسةٌ ؛ إذ اجتمعت موسيقى البحر السريع بالموسيقى الداخلية الهادئة الناعسة الناتجة عن شيوع حروف الهمس وهيمنة موسيقاها على النص، آخذة بالتصاعد، منذ البيت الأول لتظهر جلية في البيت الثاني، بتكرار حرف (الثاء) أربع مرات، وتكراره ثلاث مرات في البيت الثالث، فضلاً عن نشاط لافت للخيال، نتجت عنه صورتان مثيرتان هما: (ثغر الكفر) بالتشخيص الجليّ فيها، و(لحن المثاني والأغاريد) من خلال الدلالة الاجتماعية والجرس الموسيقي للفظة (الأغاريد) وتتواصل هذه الروح الشاعرية في لغة الشاعر، وهو يشير إلى عدل البطل، بقوله:

سفائنُ الآمال مِنْ جوده

قَدِ استوتْ منّا على الجودي

آلاؤُهُ البيضُ بالألائها

تشرقُ في ليلاتنا السُّودِ[5]

وتستمر الظاهرة الموسيقية بهيمنة على هذا النص أيضاً، من خلال تكرار عدد من الحروف

(1) وهو نور الدين بن عماد الدين، الملقب بالملك العادل، لأنه كان من أكثر ملوك زمانه عدلاً. ولي أمر حلب بعد اغتيال أبيه، ملك الشام ومصر. حارب الصليبين وانتزع منهم (الرها) و(وبانياس) شيّد الحصون والمساجد . توفي سنة 569هـ ودفن بدمشق.
ترجمته: ينظر: البداية والنهاية، لابن كثير: 16/ 480 تحقيق عبدالله عبد المحسن التركي. دار هجر للنشر. السعودية 1424هـ / 2003م . وينظر: زبدة الحلب من تاريخ حلب، كمال الدين بن العديم: 369 تحقيق خليل المنصور. دار الكتب العلمية، بيروت 1417هـ/ 1996م.

(2) الخريدة : (الشام) :1/ 27.

(3) المصدر نفسه :1/ 44.

(4) الخريدة (الشام) : 1/ 44 .

(5) المصدر نفسه : 1/ 44.

ذوات الجرس اللافت، أو تكرار الألفاظ، من خلال فنٍ بديعيّ هو الجناس، إذ هيمن جرْسُ حرف (السين) في صدر البيت الأول وعجزه، في (سفائن) التي جاء فيها حرف هامس آخر، بعد السين مباشرةً هو حرف الفاء، مصحوباً بامتداد الصوت في حرف الألف، وفي (استوت) التي جاء فيها حرف همس آخر، هو (التاء) التي تكررت مرتين. وتكررت موسيقى الألفاظ، (من) و(منا) و(جوده) و(الجودي). كذلك الأمر في البيت الثاني الذي غلب عليه جَرْسُ حروف ذوات امتداد صوتي هي: الألف واللام والهاء في الألفاظ: (آلاؤه) و(بلألائها) و(ليلاتنا).

وتستحق لفظة ليلاتنا وقفةً متأنيةً، لموسيقاها الهادئة الممتدة، ولظلال الدلالة التصويرية المصاحبة لدلالتها المعجمية ؛ فهي توحي بقلة الليالي السود- كنايةً عن شظف العيش- اشارةً الى حالة الرخاء التي تعمُّ البلاد.

ونستطيع القول إننا لم نقف على مثل هذه الروح الأنيسة واللغة الشعرية الرائعة في نصوص الشاعر؛ أيام إقامته في مصر، إلا قصيدةً واحدةً، امتدح فيها بطولة صلاح الدين- وكان مرافقاً له في زحفه إلى بلاد الشام - في معارك ؛ خاضها في حلب والموصل.

زخرت هذه القصيدة بألفاظ لم تكن معهودة في معجم الشاعر، واكتستْ الفاظها حللاً من الرقة والجرس، غير مألوفة في شعره. قال:

يومٌ أَهبَّ صَبَا الهباتِ صباحُهُ
وروى حديثَ النّصرِ عنكَ رواحُهُ
فالسّعْدُ مُشرقةٌ لنا آفاقُهُ
والنّصرُ باديةٌ لنا أوضاحُهُ
أَوفى على عُود الثّناء خطيبُهُ
وشَدا على غُصن المُنى صَدّاحُهُ
فالشّامُ مُبْتَلُّ الثّرى ميمونُهُ
والعامُ مُنْهَلُّ الحيا سَحّاحُهُ (1)

إنّ مضمون هذا النص الشعري إشادةٌ ببطولة البطل (الممدوح)، والثناء على سمة من سماته الرئيسة، وهي الشجاعة. أما شكل النص وبنيته اللفظية فنسيج من الألفاظ التي تمتاز بشيوع حروف الهمس، غير المألوفة في وصف أجواء المعارك وصخبها ؛ ولاسيما ألفاظ البيت الأول وصدر البيت الثاني، مثل: أهبّ، صَبا، الهبات، صباحه، رواحه، فالسّعد، مشرقة، فضلاً عن جُملٍ، ليست لها أية علاقة بأجواء الحروب، سواء في شكلها أو مضمونها، والبيتان الثالث والرابع من النص شاهد على هذا، فلو تأملنا الشطر الثاني من البيت الثالث (وشَدا على غُصن المُنى صَدّاحُهُ) لوجدناه أقرب إلى وصف فرحِ مُحبٍ بلقاء حبيبته منه لوصف أجواء معركة، كذلك صور البيتين الآخرين وألفاظهما فإنها بعيدة كل البعد عن أجواء القتال.

ومن هذه القصيدة قوله:

والمحلُ زالَ كبارقٍ مُتهلّلٍ
لمّا الشُّعوبَ بوَمْضِه لمّاحُهُ
فالحمدُ للهِ الذي إفضالُهُ
حُلْوُ الجنَى عالي السّنا وضّاحُهُ (2)

ويمكن القول إن لأجواء بلاد الشام النّديّة ظلالاً، انسابت على هذه الألفاظ ؛ فوشتها بالرقة واللين ؛ وفي هذا تأكيد لتأثير البيئة في المبدع والنص.

وحين نتأمل مدائح الشعراء للخلفاء والملوك وولاة الأمر في كل العصور والبلدان بنظرة شاملة لا نجد إلا صورة الممدوح أو البطل مهيمنةً على كل النصوص؛ فلا مجال لأحدٍ، يشارك فيه الممدوح في الظهور؛ ولهذا ستلفت النظرَ أيةُ قصيدةٍ من

(1) الخريدة : 1/ 17.
(2) المصدر نفسه : 1 / 18 .

هـذا النـوع، يظهـر في اثنائهـا مـنْ يُشـاركُ الشـخصية الرئيسـة في الظهـور وتلقّـي الثنـاء والتمجيـد واسـتقطاب الأضـواء ؛ إلا نـزراً يسـيراً مـن القصائـد.

وللشـاعر قصيـدة، يمكـن أن تُعـدّ ووثيقـةً تاريخيـة، مـن خـلال توثيقـه أسـماء المـدن التـي صـارت سـاحات حـرب للمعـارك، وأسـماء قـادة جيـوش لأعـداء، وأسـماء قـادة جيـش المسـلمين الذيـن أحـرزوا نـصراً باهـراً، في واحـدة مـن المعـارك الكبـيرة التـي حدثت في عهـد الملك العـادل. يقـول الأصبهـاني: (وخـرج عظيـم الفرنـج في غُـرَّة ربيـع الأول سـنة ثـمان وسـتين لقصـد حـوران في خيلـه ورجلـه، وبـات بقريـة يُقـال لهـا سـمكين، وسـار للقائـه نـور الديـن وكنـت معـه، فلـما عرفـوا رحلـوا راجعـين... فارتجلـت عنـد النـزول بالمخيـم مدحـةً مشـتملةً عـلى وصـف الحـال، وسـمّيتُ فيهـا كل مَـنْ كان حـاضراً مـن الرجـال الأكابـر الأبطـال)[1] . يقـول :

عُـقـدَتْ بـنـصـرِكَ رايـةُ الإيـمـانِ
وبَـدَتْ لعـصـرِكَ آيـةُ الإحـسـانِ
يـا غـالبَ الغُلْبِ الملوكِ وصائدَ ال
صِّيـدِ اللُّيـوثِ وفـارسَ الفُـرسـانِ
يـا سـالبَ التِّيـجـانِ مِـنْ أربـابـهـا
حُـزْتَ الفَـخـارَ عـلى ذوِي التِّيـجـانِ [2]

ويذكـر أسـماء قـادة الفرنـج الذيـن ذاقـوا مـرارة الهزيمـة عـلى أيـدي جيـش المسـلمين:

قَـمَّصـتَ قـومـصَهُـمْ رِداءً مـن رَدىً
وقَـرَنْـتَ رأْسَ بِـرِنْـسـهـمْ بـسـنـانِ
ومـلكـتَ رِقَّ مـلوكِهـمْ وتـركـتَهُـم
بـالـذُّلِّ فـي الأقْـيـادِ والأسْـجـانِ
وجـعـلتَ فـي أَعـنـاقِهـمْ أغـلالَهُـمْ
وسَـحـبـتَهُـمْ هُـوْنـاً عـلى الأذقـانِ [3]

(1) الخريدة : (الشام) : 1/ 53 – 54.
(2) المصدر والصفحة نفسها .
(3) الخريدة: الشام: 1/ 55.

وتـزداد القيمـة التاريخيـة للقصيـدة بتسـطير أسـماء قـادة الجيـش الاسـلامي:

حَـمَـلتْ عـليـهـم مـن جـنـودِكَ فـتـيـةٌ
لـم تَـدْرِ غـيـرَ حَـمـيَّـةِ الفـتـيـانِ
زَخَـرَتْ بـهـم أَمـواجُ آجـكَ فـي الوغَـى
غُـزُراً وَطَـمَّ بـهـم عُـبـابُ طُـمـانِ
وتـذمّـمُـوا مـن حَـرِّ بـأسِ مُـحـمّـدٍ
وتَـهـيّـبُـوا الـحَـمَـلاتِ مـن عُـثـمـانِ
وبـسـيـفِ جُـرديـكَ الـمجـرَّدِ غُـودِروا
بـدمـاءِ أَهـلِ الغَـدْرِ فـي غُـدرانِ [4]

كـما حـرص الشـاعر عـلى ذكـر الأقـوام والقبائـل التـي تألـف فيهـا جيـش المسـلمين:

بَـعَـلُوا مـعـسـكـرَ بـعـلـبـكَ وأَبـصـروا
مـن جُـنْـدِ بُـصـرى بَـرْكَ كـلِّ جِـرانِ
وكـأَنَّـمـا الأَكـرادُ فـوقَ جـيـادِهـا
عِـقْـبـانُ مُـلْـحَـمَـةٍ عـلى عِـقْـبـان
ولطـالـما مَهَـرَتْ عـلى نَـصْـرِ الهُـدَى
أَنـصـارُكَ الأَبـطـالُ مـن مـهـرانِ
لم يـتـركِ الأَتـراكُ فـيـهـمْ غـايـةً
بـالـفـتـكِ والإرهـاقِ والإثـخـانِ[5]

ولم يختلـف الشـاعر ابـن الخيـاط[6] عـن غـيره مـن شـعراء البيئتـين في التمسـك بسـمات البطـل التـي اتفقـت عليهـا الأجيـال؛ ولقـد جمـع سـمتي **الشـجاعة والعـدل** في مديحـه لعصـب الدولـة[7] أمـير دمشـق قائلًا:

(4) المصدر نفسه : 1/ 57 – 58 .
(5) الخريدة : (الشام) : 1/ 58.
(6) هـو احمـد بـن محمـد بـن عـلي بـن يحيـى التغلبـي. شـاعر مشـهور وكاتـب. ولـد بدمشـق سـنة 540هـ طـاف البـلاد يمتـدح النـاس، وأقـام في حلـب مـدةً وتـوفي بدمشـق سـنة 577هـ.
ترجمتـه: الأعـلام، خـير الديـن الـزركلي: 1/ 314، ط1، دار العلـم للملايـين، بـيروت، 1423هـ/ 2002م.
(7) هـو آبـق بـن طغتكـين بـن عبـدالله التركـي، أمـير دمشـق.

كَأَنِّي إذا حَيَّيْتَهُ بِصِفاتِهِ
أَمُتُّ إلى بَدْرِ السَّماءِ بِشُهْبِهِ
هُوَ السَّيْفُ يُغْشِي ناظِراً عِنْدَ سَلِّهِ
بَهاءً وَيُرْضِي فاتِكاً يَوْمَ ضَرْبِهِ
يَرُوقُ جَمالاً أَوْ يَرُوعُ مَهابَةً
كَصَفْحِ الْحُسامِ الْمَشْرَفِيِّ وَغَرْبِهِ [1]

وردت سمات البطل المتفق عليها، كلها في مدائح ابن الخياط، وبهذا فأنه لم يَشُذَّ عما سار عليه سابقوه ممن مدحوا الأيوبيين. وتمتاز لغته بما امتازت به (شاميّات) الأصبهاني التي سبقت الاشارة إليها اذ طرّزتها ألفاظ رقيقة، واسماء محسوسات كثيرة شائعة في بيئة الشام النّديّة، فضلاً عن صور فنية، تمتاز بالرقة والأنس، نراها كلها ثمرةً لتأثير تلك البيئة في سلوك ساكنيها وفكرهم.

يقول في المديح، وفي نصه كثير من السمات الفرعية التي تغذي سمات البطل الرئيسة :

بِحارٌ إذا أَنْحَتْ لَوازِبُ مَحْلِهِ
جِبالٌ إذا هَبَّتْ زَعازِعُ نُكْبِهِ
إذا وَهَبُوا جادَ الْغَمامُ بِصَوْبِهِ
وَإن غَضِبُوا جاءَ الْعَرِينُ بِغُلْبِهِ [2]

ويقول:

بِأَرْوَعَ لا تَعْيا لَدَيْهِ بِمَطْلَبٍ
سِوى شَكْلِهِ فِي الْعالَمِينَ وَضَرْبِهِ [3]

ومما جاء يحمل مسحة من بيئة الشام الرائقة قولُهُ:

حُبِيتَ حَياءً فِي سَماحٍ كَأَنَّهُ
رَبِيعٌ يَزِينُ النَّوْرُ ناضِرَ عُشْبِهِ [4]

وقد أشاد ابن الأثير برقة ألفاظه، وهو يوازن بيتاً للمتنبي بيتٍ له من القصيدة نفسها ويقول فيه:

أغارُ اذا آنَسْتُ في الحيّ أنةً
حِذاراً وخوفاً أن تكون لُحبِّهِ [5]

ولعلّ في ما ورد صورةً وافيةً لسمات البطل في تلكما البيئتين، وبياناً لأثر كلَ منهما في رسم هذه السمات .

نتائج البحث

1. استمدَّ شعراءُ بيئتي مصر والشام سمات البطل التي تغنّوا بها، في مدائحهم للملوك الايوبيين والخلفاء مما ورثوه من اسلافهم، ورضته الذائقة العربية والاسلامية.

وهذه السمات هي: العدل والعقل والشجاعة والعفة، وكانت الإطار العام الذي ضمّ سماتٍ فرعيةً اخرى، انبثقت من السمات الرئيسة .

2. كان في هذا الاطار العام مجالٌ يستوعب السمات الذاتية التي من الممكن ان ينفرد بها بطل من الابطال.

3. جاءت سمات البطل في مدائح شعراء مصر والشام للملوك الأيوبيين متطابقة مع ما ورد في ديوان الشعر العربي؛ وموشّاة بظلال من اثر البيئتين، ففي مصر ردّد الشعراء اسم نبي الله يوسف عليه السلام، جاعلين إياه رمزاً، يشير إلى أرض مصر وتأريخها، وفي الشام حملت قصائدهم،

كان أميراً عادلاً (ت 582هـ) .
ترجمته: نزهة الألباب في الألقاباً أحمد بن علي العسقلاني: 2/ 29 تحقيق عبد العزيز بن محمد بن صالح السديري،مكتبة الرشيد،الرياض،1409هـ/ 1989م.

(1) الخريدة : الشام: 1/ 148.
(2) المصدر نفسه : 1/ 150
(3) المصدر والصفحة نفسها .
(4)الخريدة : (الشام) : 1/ 151.
(5) ينظر: المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر، ابن الاثير: 3/ 223تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، 1995.

سواء في ألفاظها أو في صورها آثاراً من بيئة الشام النّدية، فكانت الألفاظ رقيقة، والمفردات صورة للمحسوسات الشائعة في تلك البيئة.

4. تأثرت صورة البطل في مدائح شعراء مصر للخلفاء الفاطميين كثيراً بمعتقدات المذهب الفاطمي، فتراجعت السمات المعهودة أمام سمات جديدة للبطل، لم يخلُ كثير منها من مغالاة في التبجيل.

المصادر

- القرآن الكريم.
- الإبل في الشعر الجاهلي (دراسة في ضوء علم الميثولوجيا والنقد الحديث)، د. أنور عليان أبو سويلم، ط1، دار حرير أ عمان ـ الأردن 1436هـ / 2015م.
- الأعلام، خير الدين الزركلي الدمشقي (ت 1396هـ)، ط5 ، دار الملايين ، بيروت 1423هـ / 2002م
- أساس البلاغة ، أبو القاسم جارالله محمود بن عمر الزمخشري (ت538هـ) تحقيق: محمد باسل عيون السود ، دار الكتب العلمية ، بيروت 1419هـ / 1998م
- أشكال التعبير في الأدب ، د. نبيلة إبراهيم ، ط2، مصر 1974م.
- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت 911هـ)، تحقيق : محمد أبي الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا - لبنان، 1964م .
- البداية والنهاية، أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (ت 774هـ)، تحقيق: عبدالله عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، السعودية 1424هـ / 2003م .
- البطل في التراث العربي، د. نوري حمودي القيسي، بغداد، 1402هـ / 1982م .
- البطل المعاصر في الرواية العربية المصرية، أحمد إبراهيم الهواري، دار المعارف، مصر، 1979م .
- حركة المجتمع وتحولات النص، خالد المصري، ط1، دار المدى، دمشق، 1997م .
- خريدة القصر وجريدة العصر، أبو عبد الله عماد الدين محمد بن محمد صفي الدين بن نفيس الدين حامد بن إله الكاتب الأصبهاني (ت 597هـ) قسم شعراء الشام، تحقيق : شكري فيصل، المطبعة الهاشمية، دمشق، 1959م .
- خريدة القصر وجريدة العصر، أبو عبدالله عماد الدين محمد بن محمد صفي الدين بن نفيس الدين حامد بن إله الكاتب الأصبهاني (ت 597هـ) قسم شعراء مصر، تحقيق : أحمد أمين، د. شوقي ضيف، د. إحسان عباس، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، 1426هـ / 2005م .
- دراسات في الأدب واللغة، د. محمد كامل حسين، ط1، منشورات البندقية، القاهرة، 2016م .
- ديوان ابن هانئ، تحقيق : كرم البستاني، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت - لبنان ، 1980م .
- ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح الواحدي ، تحقيق ماجد الجعافرة ، ط1 ، دار جليس الزمان للنشر والتوزيع ، عمان - الأردن ، 2013م .
- ديوان أبي نواس الحسن بن هانئ الحكمي ، تحقيق : غريغور شولر ، دار النشر : فرانتز اشتايز - فيسباون ، 1402هـ / 1982م.
- زبدة الحلب من تاريخ حلب ، كمال الدين بن العديم، تحقيق : خليل منصور، دار الكتب العلمية، بيروت ، 1417هـ / 1996م .
- سير أعلام النبلاء ، أبو عبدالله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز التركماني الذهبي (ت748هـ) ، تحقيق : مجموعة من محققين بإشراف شعيب الأرناؤوط ، ط3 ، مؤسسة الرسالة بيروت ، 1405هـ / 1985م .
- شعر الحرب في العصر الجاهلي ، علي الجندي ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، 1989م .
- شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات، لأبي بكر محمد بن القاسم الانباري، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، ط2 ، دار المعارف بمصر ، (د . ت) .

- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، أبو الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي (ت456هـ) ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد، ط5 ، دار الجيل ، بيروت ، 1401هـ / 1980م .
- في النقد الأدبي ، د. شوقي ضيف ، دار المعارف ، مصر، 1973م .
- الكامل في التاريخ ، أبو الحسن عزالدين علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري المعروف بابن الأثير (ت 630هـ) ، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، 1417هـ / 1997م .
- كنز الدرر وجامع الغرر، أبو بكر بن عبدالله بن آبيك الدواداري (توفي بعد سنة 736هـ) ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، 1415هـ / 1994م .
- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، أبو الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد بن عبد الكريم الموصلي المعروف بأبن الأثير الكاتب (638هـ) ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، المكتبة العصرية ، بيروت ، 1995م .
- مع المتنبي في شعره الحربي ، د. هادي نهر ، ط1 ، بغداد، 1979م .
- الموازنة بين أبي تمام والبحتري للآمدي (تحليل ودراسة) ، دار قاسم مومني ، دار آفاق عربية ، بغداد، 1405هـ/ 1985م .
- نزهة الألباب في الالقاب، أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني (ت852هـ)، تحقيق : عبد العزيز بن محمد بن صالح السديري، مكتبة الرشيد، الرياض، 1409هـ / 1989م .
- نقد الشعر ، أبو الفرج قدامة بن جعفر بن قدامة بن زياد البغدادي (ت337هـ) ، مطبعة الجوائب ، قسطنطينية، 1302هـ .
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان (ت 681هـ) ، تحقيق : د. إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، 1994م.